# الحركة الصوفية وأثرها في المشرق الإسلامي خلال القرن (7هـ/13 م)

أ/ مزياني فتيحة
قسم التاريخ جامعة الجزائر2

**الملخص بالعربية:**

يعتبر موضوع التصوف من المواضيع الهامة للغاية فقد شغل حيزا كبيرا في البحث فقد قيل عنه الكثير وتضاربت فيه الآراء واختلفت لقد سال الكثير من الحبر في هذا الموضوع لكثرة الاختلاف القائم حوله والذي بدا انطلاقا من لفظ "تصوف" أي أن الخلاف بدا من اصل التسمية أو المصطلح حيث قيل التصوف مشتق من الصفاء وقيل بل مشتق من الصوف وغير ذلك من الاشتقاقات الكثيرة التي أعطيت وغير ذلك من الاختلافات غير ان ما يهمنا في هذا الموضوع ليس الوقوف عند حدود الجانب النظري في التصوف بل سنركز على الجانب التطبيقي العملي لرجال الحركة الصوفية في المشرق ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عن ما هو دور الحركة الصوفية في الحياة الاجتماعية في المشرق الإسلامي خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي؟

The sufism is very important topicit filled a lot of space search itintersect with the subject of faith
It has been suggested by manyspeaches and vared opinions and alot of inkappear difference based out of the wordit has been said of sufis mis drived from the seremtty and other said and wool but what concerns us in this topicis the praticcal side and not the theoetical side and from here we wondes about the rôle of the sufi mouvement in the social life in the islamic orient during the seventh centry.

لقد عرف القرن (7هـ/13 م)، انتشارا واسعا للصوفية في المشرق الإسلامي فكثرت فيه الطرق الصوفية و تجدرت[1]، خاصة وأنها وجدت مناخا ملائما وجوا مناسبا للنمو والانتشار بين مختلف الطبقات الاجتماعية لاسيما الأوساط الشعبية التي وجدت في التصوف أحسن طريقة للتعبير عن الظروف الصعبة التي تعيشها[2]، فقد عان المشرق الإسلامي من الحروب المدمرة المتمثلة في الغزو الصليبي و المغولي للمنطقة إضافة إلى ما تعرضت إليه من أخطار الكوارث الطبيعية من فيضانات و جفاف وما خلقته هذه الأخيرة من مجاعات قضت على عدد كبير من السكان[3].

**1-دور الصوفية في خدمة المجتمع (التكافل الاجتماعي):**

لقد برز دور الصوفية في المجال الاجتماعي في فترة الكوارث، و قد تمثل دورهم في المساعدات"التي كان يقدمها رجال الصوفية لأفراد المجتمع المشرقي و مثال ذلك أن الشيخ الصوفي الكبير العز بن عبد السلام) ت 660 هـ - 1262م(، قد ساعد الفقراء في فترة غلت فيها الأسعار بدمشق التي كان لا يزال موجودا فيها قبل أن ينتقل الى مصر حيث أعطته زوجته مجموعة من المجوهرات التي كانت تحتفظ بها و طلبت منه أن يبيعها لها و يشتري بثمنها بستانا لأن البساتين في هذه الفترة قد انخفض ثمنها، فأخذ الشيخ المجوهرات، وباعها و قبض ثمنها و وزعه على الفقراء و المحتاجين، وعندما سألته زوجته عما صنع بنقود المجوهرات أجابها بقوله":جزاك الله خيرا عنها ":وكان قد تصدق بجميعها[4].

كما كان الشيخ الصوفي الخضر بن أبي بكر المهراني (ت676هـ/1828م) المصري يتصدق بالذهب و الفضة على الفقراء و المساكين و المحتاجين، إضافة الى ما كان يعده لهم من أطعمة كان يأمر بتحضيرها في قدور كبيرة الحجم حتى قيل بأن تلك القدور كان يتعاون على

حملها جماعة من الحمالين لكبرها، حيث كانوا يقومون بتوزيع ما فيها من طعام على الفقراء[5]، كما كان الشيخ الصوفي قطب الدين القسطلاني محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسين بن عبد الله بن محمد بن ميمون ... القسطلاني الزاهد (ت 686هـ/1288م)، يطعم الفقراء الوافدين الى القاهرة و بيرهم و يساعدهم[6]، وهذا يمثل صورة من صور التكافل الاجتماعي المتأصل في عمق المجتمع المشرقي الاسلامي.

**2-الصوفية ونشر الوعي الديني:**

لقد برز دور الصوفية الديني في شرحهم لأمور الدين و تبيينها للعامة في الأماكن المختلفة كالمؤسسات الصوفية والمساجد و غيرها من الأماكن الأخرى و يظهر ذلك جليا من خلال إقامتهم للمجالس الوعظية في فترة القرن(**7هـ/13م**)، ومن أبرز الشخصيات الصوفية في هذا المجال الشيخ المظفر بن سأسير البغدادي المولد و الديار (ت 607ه/ 1210م)، الذي عرف بحبه للإصلاح الاجتماعي عن طريق نشر الوعي الديني بإقامة مجالسه الوعظية في المساجد التي كان يدعو فيها الناس الى الاستقامة وإتباع الدين والالتزام بأوامره و نواهيه الشرعية، ولم تكن مجالسه تقتصر على بغداد وحدها فحسب وإنما كان ينتقل الى القرى المجاورة ليقيم فيها مجالس وعظية فقد قال ":عملت مرة مجلسا ببعقوبا وعملت مرة بباصرى وكان عدد الحاضرين كبيرا[7] ":وهذا الحضور الكبير لمجالسه الوعظية دليل واضح على حب الناس له و لمجالسه الوعظية.

كما كان الشيخ الصوفي عبد الله اليونيني(ت617ه/1220م)، شيخ زاوية بعلبك يستغل فرصة زيارة الناس له كونه من كبار الصالحين بالمنطقة فيعظهم ويأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر حتى قيل بأن شابا نصرانيا دخل

الاسلام على يديه، كما أنه لم يكن يعظ في بعلبك وحدها فقط و إنما كان ينتقل الى دمشق ليقيم مجالسه الوعظية فيها[8].

كما عرف الشيخ الصوفي ابراهيم بن حسن الفاوي (ت627ه/1230م)، المصري بالوعظ و الإرشاد بإقامته للمجالس الوعظية خاصة وأنه شغل منصب الامامة بالجامع العتيق بمصر حيث كان يقيم الخطب الوعظية[9] ، كما عرف الشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد بن غانم بن كريم الاصبهاني (649ه/1251م)، الذي سكن بغداد واستقر وتعلم بها على يد الشيخ شهاب الدين السهر وردي و قد أقام المجالس الوعظية ومما كان يقوله في خطبه الوعظية":العالم كالذرة في فضاء عظمته والذرة كالعالم في كتاب حكمته، الأصول فروع إذا تجلى جمال أوليته، و الفروع أصول إذا طلعت من مغرب نفي الوسائط شمس أخريته أستار الليل مسدولة و شموع الكواكب مشعولة[10] ":

كما عرف الشيخ العز بن عبد السلام(ت660ه/1262م) بنشاطه الوعظي والإرشادي من خلال توليه منصب الخطابة بالجامع الأموي بدمشق حيث أزال الكثير من البدع التي كان يقوم بها الخطباء في المساجد على المنابر كدق السيف كما أبطل صلاة النصف من شعبان وغيرها من البدع، كما وعظ وأرشد الناس بمصر عند توليه للخطابة بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة حيث كان يأمر الناس بالمعروف و ينهاهم عن المنكر والظلم.[11]

كما أنه أبطل الخمور بإغلاقه لحانة كانت هناك[12]، وهو نفس ما قام به من انكار للخمور بدمشق في دولة السلطان الأشرف موسى بن العادل (ت635ه/ 1237م) الذي كان على خلاف مع أخيه الكامل حاكم مصر فكان يستعد لحربه إلا أنه مرض و بسبب مرضه ذاك بعث للشيخ العز بن عبد السلام برسالة يستدعي فيها الشيخ سائلا اياه عما يصلح حاله بعد الموت فنصحه الشيخ بعدم الدخول في حرب ضد أخيه و بان يوجه مجهوده الحربي

ضد الأعداء الصليبيين و هذا ما يرضي الله و رسوله في حسن أن قطع صلة رحمه مع أخيه مما لا يحبه الله و رسوله[13].

وقد عرف الشيخ أبو زكريا يحي النووي (ت676ه/ 1278م)، بأمره للناس بالمعروف و نهيهم عن المنكر ارشادا و توعية للعامة[14] كما اشتهر الشيخ ابراهيم بن معضاد الجعبري (ت 687ه/1289م) البغدادي بمجالسه الوعظية وارشاده حيث كان يتوب على يديه الكثير من الضالين و العصاة، اضافة الى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر[15]، كما عرف الشيخ عز الدين الفاروثي الواسطي (ت694ه/ 1295م)، بوعظه وإرشاده للعامة من خلال توليه لمنصب الخطابة في بغداد، كما عرف بتشيعه للجنائز وزيارته للمرضى[16]، كما كان الشيخ الصوفي ابن عطاء الله السكندري (ت709هـ/1311م) تاج أحمد بن محمد يقيم المجالس الوعظية التي يرشد فيها العامة وقد استقام على يديه الكثير من الناس[17].

**3-تربية المردين و تسليكهم:**

لقد كان اهتمام الصوفية كبيرا جدا بتكوين المريدين الصوفيين (وهم الأتباع من الصوفية)، حتى يكونوا جيل صوفي يكون بمثابة الخلف للسف لذلك عمل كبار شيوخ الصوفية على جلب المريدين إليهم وتربيتهم تربية صوفية خالصة من خلال تسليكهم في طريق التصوف، ومن هؤلاء الشيخ الصوفي أبو الحسن بن الصباغ (ت613هـ/1216م)، والذي عرف بكثرة أتباعه و بحسن تربينه للمريدين الذين أخذوا عنه أصول التصوف[18].

كما عرف الشيخ الصوفي على الفرنثي (ت621هـ/1224م)، شيخ الزاوية الموجودة بسفح جبل قاسيون (في دمشق)، بتربيته للمريدين تربية صادقة وخالصة خاصة وأنه عرف بصدقه و بكثرة عبادته[19]، كما عرف

- أيضا الشيخ الصوفي شهاب الدين السهر وردي، شيخ العراق المشهور بدوره الكبير في تسليك الأتباع و تربية المريدين فقد كانت مشيخة العراق بيده[20]، كما كان الشيخ عدي بن مسافر (ت644هـ/1246م)،و الملقب "بتاج العارفين" دور بارز في تربية المريدين، وقد كان أكثر أتباعه من الطائفة الكردية[21] كما كان للشيخ الصوفي على الخباز (ت656هـ/1258م)، شيخ الزاوية الموجودة في بغداد دور مهم في تربية المريدين بتعليمهم السير على نهج الطريق الصوفي وقد كان لديه أتباع كثر[22].

كما اشتهر الشيخ الصوفي أبو القاسم الحوراني الدمشقي (ت633هـ/1237م)، بتربية المريدين من الأتباع و تسليكهم في طريق التصوف وقد شمل نشاطه هذا سواد العراق[23] وممن كان لهم دور مهم وبارز في مجال التسليك ولتربية الشيخ الصوفي نجم الدين بن الحكيم عبد الله بن أبي الخير الحموي الدمشقي (ت678هـ/1280م)، شيخ زاوية حماة الشامية الذي قصده الطلبة و المريدون من مختلف الجهات ليتعلموا منه أصول طريق التصوف وقد كان عدد أتباعه كبيرا جدا[24].

وكذلك الشأن بالنسبة للشيخ الصوفي يوسف الفقاعي بن نجاح بن موهوب (ت680هـ/1282م)، المعروف بصلاحه، شيخ الزاوية الموجودة بسفح جبل قاسيون (في دمشق)، الذي قصده الطلبة و المريدون الراغبون في التصوف فصاروا من أتباعه[25]، و في نفس الإطار عمل الشيخ الصوفي الملقب بالفاروثي (ت694هـ/1295م)، عز الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن عمر الواسطي الشافعي المذهب شيخ العراق على تربية المريدين والأتباع الذين أخذوا عنه أصول سلوك طريق التصوف[26].

ومن خلال ما سبق نستنتج أن أفراد الحركة الصوفية قد اهتموا بخدمة المجتمع خلال القرن (7هـ/13م)، من خلال سعيهم الحثيث على اصلاح

أفراده عن طريق الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتربية المريدين و هكذا أسهموا في الإصلاح الاجتماعي فقد أصبح لديهم و كما رأينا سابقا دور كبير ومميز في الحد من التفسخ الأخلاقي والانحرافات بتدخلهم العملي الايجابي في الحياة الاجتماعية وهذا الدور قام به بعض الصوفية طبعا.

**4-عقد الصوفية للسماعات و حلقات الذكر:**

لقد ظهر اهتمام الصوفية بالسماعات في وقت مبكر من تأريخهم باعتباره نشاطا أساسيا لديهم، وهي تعتمد على الكلمات الرمزية والحركات الايقاعية والقصائد الشعرية المثيرة للوجدان وللنشوة الروحية[27] **وهي تعتبر** حلقات ذكر لطائفة الصوفية والتي عادة ما تكون متبوعة بالرقص[28].

**وعن السماع الصوفي يقول الباحث المعاصر رفيق العجم بأن أتباع** الصوفية يقومون به قصد الراحة من التعب وهو مفضل على غيره لميل الطباع اليه[29] وممن عرف بسماعاته الشيخ الصوفي روزبهان بن جيحون الذي رحل الى حلب ثم سكن في خانقاه القصر النورية ثم رحل الى مصر التي كان موجودا بها سنة (603هـ/1207م)، وهو روزبهان بن أبي بكر بن محمد بن أبي القاسم الفارسي الكازروني الديلمي الصالح الذي سكن الموصل **ثم سافر منها الى حلب فدمشق ثم سافر منها الى مصر التي استقر بها إلى** غاية وفاته وقد كانت طريقته قائمة على الصياح **(الصراخ)، فقد كان يدعي** بأنه من المشتاقين، لذلك كان يصرخ بصوت مرتفع جدا والأكثر من ذلك أنه كان يصرخ في صلاته وقد رافقه الشيخ يحي بن عبد الله شيخ الرباط الذي دفن فيه الملك الصالح إسماعيل بن السلطان نور الدين محمود، وقد أخذ طريقة الشيخ روزبهان الفارسي في الصياح[30].

وحينما انتقل الشيخ الى مصر وحضر خطبة الجمعة بجامع عمرو بن العاص بالقاهرة صاح صياحا عاليا جدا على عادته حتى انزعج منه المصلون حتى قيل بأن أحد المصليين قد هم بضربه وقد كان يرافق الشيخ القوالون[31] و الشبابات[32] في السماعات التي كان يقيمها الشيخ وأتباعه وقد كان يقيمها الشيخ وأتباعه[33] وقد كان الشيخ يصفق و يرقص مع أتباعه وممن اشتهر بحبه للسماع الشيخ الصوفي أبو الحسن بن الصباغ المصري (ت613هـ/1217م)، وهو علي بن حميد بن إسماعيل بن يوسف بن الصباغ الذي حكى عنه أحد أصحابه من الفقراء الصوفية بأنه طلب القوال و الدف و الشبابة فأقام له ولأصحابه سماعا قال فيه القوال شعرا:

أغضبت إذا زعم الخيال بأنه — إذ زار، صادف جفن عيني مغمضا
وافى-كلمح البرق-صادف نوره — غسق الدجى، ثم للحال انقضى
وكأنه ما جاء إلا زائرا — للقلب، يذكر من وصالك ما مضى
وحياة حبك لم أنم عن سلوة — بل كان ذلك للخيال تعرضا
ياضرة القمرين من كنف الحمى — و يا ربيبة العالمين من وادي الغضا

فلما وصل القوال الى البيت الثالث "وافى كلمح البرق" قام الشيخ يرقص في السماع وقام معه أتباعه فلما اشتد الوجد[34] بالشيخ خلع على القول رداءا كان عليه فتبعه أصحابه الذين خلعوا بدورهم أثوابهم والقوها على المغني[35].

وفي مجال تنظيم الصوفية لنشاط السماع قبل بأن الشيخ الصوفي محمد بن ابراهيم الفارسي (ت622هـ/1225م)، بن أحمد الفخر حضر مرة مجلسا صوفيا كان فيه القوال فترك المجلس وغادر بينما بقية الحاضرين من الصوفية بقوا يستمعون للقوال الذي أنشدهم قائلا:

كررت في المذهب في العشق زمان حتى ظهرت أدلة الحق وبأن
مازلت أوحد الذي اعشقه حتى ارتحل الشرك عن الحق وبان

و قيل بأن شيوخ الوقت الحاضرين في هذا المجلس من الصوفية قد استمتعوا كثيرا بوقتهم في ذلك اليوم[36] كما عرف الشيخ أبو الحجاج الأقصري (ت624هـ/1227م)، وهو يوسف بن عبد الرحيم بن عزي المغربي الأصل الذي استوطن مصر ولقب بالأقصري بحبه الشديد للسماع، وقد كان يصيح في سماعاته بصوت مرتفع بقوله يا حبيب، ياحبيب"، وقد ادعى أتباعه بأنه قد عرج به الى السماء في منتصف شعبان، فأصبحوا منذ ذلك الحين يحيون ذلك اليوم بالسماع[37].

كما كان الأمير حسام الدين بن لاجيين (ت627هـ/1230م)، وهو أحد كبراء امراء دمشق يحب الفقراء الصوفية و يؤثرهم بمكانة خاصة لديه فقد كان يجمعهم و يقيم لهم السماعات على نفقاته الخاصة و يحضر لهم المأدوبات الفاخرة و يخدمهم فيها بنفسه[38] وقد كان للصوفية مكانة كبيرة وحظ وافر عند الملك المظفر أبو سعيد كوكبري (ت629هـ/1232م)، وهو ابن زين الدين علي بن تبكتكين، أحد كبار دمشق، المشهور بحبه للصوفية وبإقامته لسماعاتهم وحضوره لها، وقد كان يقيم لهم الموالد و يدعو فيها أعيان الصوفية فيقدم لهم الهدايا (الهبات)، و يقيم لهم السماعات التي كانت تدوم ساعات طويلة من الظهيرة الى غاية الفجر وهو يرقص معهم[39] كما ذكر المؤرخ ابن كثير في كتابه البداية و النهاية أنه في سنة (630هـ/1232م)، و بينما كان الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي (ت632هـ/1235م)، في إحدى مجالسه الوعظية قال بيتا شعريا و كرره:

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب له في الركب محبوب فقام

من المجلس شاب رد على الشيخ فأنشده قائلا:

كأنما يوسف في كل راحلة والركب في كل بيت منه يعقوب

فصاح الشيخ ونزل من مكانه من على المنبر متوجها الى الشاب ليعتذر منه إلا أنه لم يجده لأنه كان قد غادر المكان وقيل بأنه وجد في مكانه حفرة فيها دم لكثرة ما كان الفتى يفحص (يضرب) برجليه الأرض عند إنشاد الشيخ لهذا البيت الشعري تأثرا به[40].

في حين ذكر المؤرخ ابن الملقن (ت804هـ/1401م)، في كتابه الطبقات بأن الشيخ شهاب الدين قد قال في أحد مجالسه الوعظية شعرا جاء فيه:

لا تسقيني وحدي فما عودتني أنى أشح بها على جلاسي

أنت الكريم، ولا يليق تكرما أن يعتر الندماء دور الكأس

فتواجد الناس لذلك، لدرجة أن قطعت شعور كثيرة ومات عدد من الحاضرين من شدة تأثرهم ومن شدة الوجد[41].

كما حكى المؤرخ اليافعي (ت768هـ/1280م)، بأن الشيخ عمر بن الفارض التقى يوما بالشيخ شهاب الدين السهروردي وكان قلقا لأنه لم يذكر في الحضرة منذ مدة فقال له ابن الفارض شعرا [42]

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا ذنب ولا حرج

واستمر الشيخ في الانشاد الى أن وصل الى البيت الذي قال فيه:

أهلا بما لم أكن أهلا لمرقعة قول المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت على ما فيك من عوج

فلما سمع الشيخ شهاب الدين السهروردي هذين البيتين الشعريين قام فتواجد هو وجميع من كان حاضرا عنده من شيوخ الوقت الصوفيين في ذلك المجلس الصوفي[43].

وممن ذاع صيته في السماعات الصوفية الشيخ علي الحريري (ت645هـ/1247م)، شيخ الطائفة الحريرية التي أقامت السماعات وبالغت فيها الى حد كبير ومما قاله الشيخ معبرا فيه عن حبه الكبير للسماع شعرا قوله:

قالوا انت تدعى صالح　　دع عنك هذي الخندقة

قلت السماع يصلح لي　　بالشمع والمردان

ولما توفي الشيخ الحريري بدأ أتباعه يحيون ليلة السابع و العشرين من شهر كل رمضان بإقامة السماعات في ليلة القدر، وقد استعملوا في سماعاتهم تلك الشبابات و الدفوف، وقد كانوا يقيمون السماع الى وقت متأخر جدا من الليل حتى قال عن سماعهم أحد الشعراء: [44]

ومن ذا في السماع له مقام　　إذا سمعت مقامات الحريري

كما وصف المؤرخ قطب الدين اليونيني (ت654هـ/1256م)، في كتابه ذيل لمرآة الزمان ليلة سماع على طريقة الصوفية حيث نقل نبأ وصول الشيخ الصوفي سراج الدين أحمد الأزرانكاني الى دمشق وكان قد بلغ هذا الأخير الى درجة عالية جدا في الموسيقى التي أجادها وبرع فيها، وكان الشيخ يصنف موسيقاه على الطريقة الفارسية الخراسانية في القول و الغزل، و قد كان حضوره الى دمشق في فترة حكم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي، والذي عندما سمع بحضور الشيخ الى المدينة طلب منه الحضور إليه، فقدم الشيخ الى مجلس السلطان مرتديا

لباس الفقراء الصوفية كما كان يضع قبعا طويلا على رأسه، فرحب به الملك و دعاه الى الشراب معهم فاعتذر الشيخ عن ذلك مما جعل السلطان لا يصر عليه، و بعدها بدا الشيخ في انشاد ما صنفه من أشعار ومما انشده الشيخ من أشعار في المجلس[45].

سلام على أهل ناديكم ومن حل يوما بواديكم
سلام عن خزائن لطف ربي على من ساكني روحي وقلبي
جننا بليلي وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وقال أيضا:

يا من بدائع حسن صورته ثنى اليه أعنة الحدق

فقدم له السلطان الاشرف موسى مجموعة من الهدايا وطلب منه أن يغير القبع بالعمامة فوافق الشيخ على طلب السلطان ومكث مدة في دمشق زاره خلالها الراغبون في تعلم الطرب وعند وفاة الملك الاشرف سنة(635هـ/1238م)، غادر الشيخ دمشق متوجها الى مدينة حمص التي أقام بمدرستها سنة (650هـ/1252م) كما انتقل الشيخ الى مدينة حماة الشامية والتي علم بها الراغبون في التعلم عليه وقد استقر في هذه المدينة الى غاية وفاته سنة (658هـ/1260م)، وقد لقب بالبديع الطنبوري"، ومما قاله في الوداع:[46]

ولما اجتمعنا للوداع وقبلها وقلبي بين الصبابة و الوجدا
بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعي عقيق فصار الكل في نحرها عقدا

كما كان الشيخ الصوفي عز الدين بن عبد السلام (ت660هـ/1262م)، من المولعين بحضور السماعات الصوفية و الرقص

فيها، فقد كان يستمع الى الأشعار و يتواجد عند سماعها[47] كما اشتهر الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ الكبير عثمان بن علي الرومي (ت684هـ/1286م)، بحبه للسماع، وهو شيخ الزاوية الموجودة في سفح جبل قاسيون (في دمشق)[48] ، في حين كان الشيخ الصوفي أبو الرحال بن مرعي بن بحتر المنيني الشامي (ت694هـ/1295م).

شيخ زاوية منين الدمشقية من أشد الكارهين للسماعات الصوفية الشيطانية[49].

**5-نقد السماعات الصوفية:**

لقد لقت السماعات الصوفية اعتراضا كبيرا من قبل الكثير من العلماء و الصوفية لما وقع فيها من تجاوزات للشرع وقد قال المؤرخ الصوفي أبو طالب المكي (ت386هـ/995م) في كتابه قوت القلوب، بأن في المواجيد ضلال و غرور علاوة على ادعائهم للمحبة وإنكارهم لما جاءت به السنة النبوية الشريفة في هذا الشأن[50] كما قال الامام ابن الجوزي (ت597هـ/1201م)، منتقدا مسلكهم هذا في السماع من خلال كتابه تلبيس ابليس لكونهم يتواجدون في سماعاتهم و يصيحون و يصفقون و يمزقون ملابسهم بحجة أنهم لا يشعرون بما يقومون به من أفعال، إلا أن الامام ابن الجوزي رحمه الله نجده يؤكد على إنهم آثمون في فعلهم ذاك لعلمهم المسبق بما سيكون عليه حالهم عند حضورهم السماع لذلك كان من الأحرى بهم تركه كليا لأن تجنب مواضع الريب واجب شرعا في الإسلام، خاصة وأن الغناء الذي جعله الصوفية "سماعا" منهي عنه بإجماع المذاهب الأربعة المعروفة عندنا باعتبار أن المفاسد المنجرة عنها كثيرة[51].

كما أن هؤلاء الاباحيين استمالوا اليهم الصبيان الذين جعلوهم مرافقين لهم في حلقات"الذكر و السماع"، اضافة الى اختلاطهم بالنساء الأجنبيات عنهم

بحجة الباسهم خرقة الصوفية وأخذهم للعهد عليهن حتى أن كثيرا من أولئك النسوة(النساء)، قد انقلبن على أزواجهن، كما أن هؤلاء الصوفية تلاعبوا بالمصطلحات فسموا "الطرب" وجدا" و"الدعوة" "وقتا"، كما جعلوا "تقبيل الأمرد" من الذكور" رحمة "والخلوة" بالأجنبية "ابنة" لإلباسها اللباس الصوفي[52] كما ان من أتباع الصوفية من يشتد به الوجد أثناء السماع فيقطع ثيابه قطعا صغيرة أو أنه يحتفظ بها سليمة و يرمي بها على المغني، وكل ذلك بحجة أنهم في حالة غيبة(عدم وعي)، والتي لا تصح أن تؤخذ كذريعة للوقوع في النواهي الشرعية[53]، وقد ثبت عن الفضيل بن عياض (ت187هـ/799م) التميمي المكنى بأبي عليس الخراساني، وهو من أوائل الزهاد انكاره التأثر من شدة الوجد من أنه قال وقد سقط ابنه من الوجد: "يا بني إن كنت صادقا فقد فضحت نفسك، وإن كنت كاذبا فقد أهلكت نفسك":[54] وقد قال ابن الجوزي رحمه الله مستنكرا ما يحدث في السماعات الصوفية بأن منهم من ينشد بتطريب الأشعار كأشعار مجنون ليلى فيصعق البعض ويمزق البعض الآخر ثوبه معتقدين أن ذلك قربة لله عز وجل وهذا يشبه الألحان الموسيقية وهي توجد طربا ونشوة في النفوس ما يعرض سامعها للفساد، كما أنه من الوعاظ من يتكلم عن المعرفة و المحبة الالهية فترى أكثرهم ممن لا يعرفون حتى الفرائض يمزقون أثوابهم ادعاءا لمحبة الله تعالى خاصة وأن منهم من يتخيل بوهمه الخالق شخصا وليس من يتخايلونه هو الخالق لأنه جل وعلا لا يقع في مجال الخيال أبدا وهذا انحراف واضح لبعض الصوفية[55].

وممن كان له رأي واضح في السماع عند الصوفية الشيخ الصوفي الكبير شهاب الدين السهروردي (632هـ/1235م)، الذي قال في كتابه عوارف المعارف بان السماع الحق هو ما جعل العين تفيض دمعا، لما يتركه هذا

السماع في النفس من حزن و شوق حار مرة و ندم شديد تارة أخرى إلا أن هذا السماع يمكن أن يتعدى الى مظاهر أخرى كالصياح المرافق للاضطراب وهذا ما يقع لبعض الصوفية ثم أنه بين جهات النظر المختلفة لدى الصوفية في شأنه ما بين متعلق به ومولع بحضوره وما بين منكر له باعتباره فجورا فسقا وهذا الاختلاف كان حول السماع بالألحان وقد أورد الشيخ رأي أحد الصوفية في السماع وقد قال فيه بأنه: "جائز و المحروم منه اللهو و اللعب الذي قد يقع فيه:"[56]

كما وضح الشيخ موقفه من السماع قائلا: "سنفصل الأمر فيه موضحين الحرام و الحلال فيه:"[57] ، فقرر في شأن الآلات الموسيقية المستعملة فيه كالدف و الشبابة فالأولى تركهما احتياطا وأما بالنسبة للقصائد الشعرية التي تدور مواضيعها حول الجنة والنار و الترغيب في العبادات كالجهاد و الحج وغيرها من العبادات الأخرى فلا مجال فيه للانكار، وأما بالنسبة للتغزل بالقد الجميل و ما يرافقه من وصف للنساء فلا يليق بأهل الدين الاجتماع لذلك و أما بالنسبة للشعر الذي يدور حول المعاني التي يمكن حملها على المولى جل وعلا فتلك حالة يرتبط فيها الحكم الشرعي بنفسية ونية الصوفي المستمع فإن أعانه ذلك على احتمال مشاق الطريق الصوفي كالجوع و غيره فلا بأس أن أستمع لمثل قول القائل:

أتوب اليك يا رحمان أني أسأت و قد تضاعفت الذنوب
فأما من هوى ليلى وحبي زيارتها فإني لا أتوب

فإن لم يكن المستمع ممن يتقوى بسماعه على تحمل المشاق وكان ممن يزيده السماع وجدا وتأثرا لم يجز له السماع في تلك الحالة[58].

وفي شأن السماع قال شيخ الاسلام ابن تيمية (ت728هـ/1328م) رحمه الله بأن السماع المسموح به شرعا هو الاستماع الى القرآن الكريم لأنه من جنس استماع الأنبياء والمرسلين، كما أن سماع الصوفية لم يكن معروفا في القرنين الأول و الثاني للهجرة بل أنه ظهر منذ القرن (3هـ/9م)، اضافة الى أن الأشعار التي ينشدها الصوفية في سماعاتهم تحتوي على عبارات الحب و الوصل و الهجر و الشوق... وغير ذلك من العبارات الأخرى التي يحب سماعها كل من محبي الرحمان و محبي الأوثان والأحوال والأوطان و النسوان و المردان لذلك فالمفاسد و المضار التي تنجر عنه أكثر من منافعه كما هو الأمر بالنسبة للخمر المحرمة شرعا[59].

كما أن الشريعة الاسلامية مصلحة خالصة و السماع مسكر للروح يتغيب به العقل و في هذا صد عن ذكر الله وعن الطاعات و الرسول صلى الله عليه و سلم لم يترك شيئا فيه مصلحة لنا إلا و ذكره، ولو كان في السماع أي مصلحة لذكره والآيات والأحاديث لم تأتي على ذكره لذلك فهو يعتبر من البدع المذمومة شرعا لأن العبادة الحقيقية لله جل وعلا تكون بالركوع و السجود و لا تكون بالرقص و سماع الدف وهذا وإن حدث فهو محرم على الجميع، ومن ادعى أنه لا يحرم عليه فهو ضال مبتدع باتفاق الأئمة المسلمين[60].

وهو نفس ما ذهب اليه الامام ابن القيم الجوزية (ت751هـ/1350م) رحمه الله والذي فصل كثيرا في موضوع السماعات الصوفية في كتابه اغاثة اللهفان فقد شدد على أن سماع الغناء من الأمرد (الصبي الجميل الوجه)، أو المرأة الأجنبية من أكبر المحرمات الشرعية، لما فيه من إفساد للدين[61]، وقد أنكر الامام سماع الصوفية لما فيه من خروج عن طابع الاتزان قائلا:" فلو رايتهم عند ذاك السماع و قد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم

الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه وانصبت انصبابة واحدة اليه فتمايلوا له ولا كتمايل النسوان وتكسروا في حركاتهم و رقصهم أرأيت تكسر المخانيث و النسوان، و يحق لهم ذلك و قد خالط خمارة النفوس ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس(الخمر)، فلغير الله بل للشيطان، قلوب تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل فيهم السكر (الروحي) عمله، قضوا حياتهم لذة و طربا واتخذوا دينهم لهوا و لعبا:"[62]

فالصوفية عندما يجتمعون للسماع يزداد وجدهم فتتحرك أقدامهم و يرقصون و يصفقون طربا فيشتد شوقهم و يتأجج حتى قيل في سماعهم شعرا:

حتى إذا قام السماع لديهم ... خشعت له الأصوات بالإجلال

وامتدت الأعناق تسمع وحي ذا ... ك الشيخ من مترنم قوال

وتحركت تلك الرؤوس وهزها ... طربن وأشواق لنيا وصال

فهنالك الأشواق والأشجان والأ ... حوال، لا لأهلا بذي الأحوال

تا الله لو كانوا صحاة أبصروا ... ماذا دهاهم من قبيح فعال

لكنما سكر السماع أشد من ... سكر المدام، وذا بلا اشكال[63]

وقال الامام الفقيه الشاطبي (ت790هـ/1390م) رحمه الله في شأن السماعات بأن الصوفية يدورون و يرقصون في سماعهم بينما السماع الشرعي ما فيه حكمة وموعظة للقلب كسماع القرآن و السنة و كلام الفضلاء و الحكماء، كما أنه ليس بعبادة كما جعلته الصوفية لأنه خارج على الشريعة الاسلامية.

و يرى أيضا أن سماع الصوفية خال من أي حكمة لاستواء النثر و الشعر لديهم، فهم متعرضون للفتنة في سماعاتهم تلك فأكثرهم يستمعون لذة

وطربا، كما أنهم يصنعون الأغاني المطربة حتى أخذهم الهوى، فاخترعوا لها ألحانا تعشقا النفوس وطال بهم الوضع على هذا النحو حتى اعتقد الجهال منهم قربة الى الله وأصبح من الطقوس الهامة في انتهاج طريق التصوف، وهو في الحقيقة من البدع المنكرة شرعا[64] خاصة وأن الشريعة الاسلامية جاءت لتنهي الانسان عن الوقوع في المعاصي والآثام و بغرض ابعاد المكلفين شرعا عن دائرة الأهواء[65].

وعن السماع الصوفي قال المستشرق نيكلسون في كتابه في التصوف الاسلامي و تاريخه بأن السماع من مبتدعات الحركة الصوفية و غرضها في ذلك اثارة وجدان أتباعها وتحريك مشاعرهم فليس هناك ما هو أقوى تأثيرا من الاستماع الى الموسيقى والغناء لتحقيق ذلك[66] في حين ذهب الباحث المعاصر السيد الجميلي محقق كتاب التلبيس للإمام ابن الجوزي رحمه الله الى تفسير صياح الصوفية و صراخهم خلال السماع ما هي إلا صرخات سببها نفسي خالص[67].

وبذلك يتضح لنا جليا ان بعض أتباع الحركة الصوفية قد ابتدعوا السماع وأدوه على طريقتهم التي كانت في أغلب الأحيان بعيدة عن الشرع الإسلامي، فأورثوا المجتمع الاسلامي عادات لا تمت بأية صلة للعقيدة الاسلامية الصحيحة التي انزلها الله تعالى ورسوله الأمين صلى الله عليه وسلم فأي ايجابية تبقى لسماعات الحركة الصوفية بعد هذا.

**-الهوامش:**

1) عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر نشأتها و نظمها و رؤيتها، ط3 ،دار المعارف، مصر، 1986، ص1، ص 496 .

2) محمود عبد الرشيد: التنظيمات الصوفية و تنمية المجتمع (دراسة من منظور علم الاجتماع)، د. ط، دار الفرحة للنشر، مصر، القاهرة، ص

3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق يوسف الدقاق، ط3، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، لبنان، (1418ه – 1998م)، ص 454، ص .474

4) الداودي: طبقات المفسرين، مراجعة لجنة العلماء، د. ط، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، لبنان، ج1، ص .322

5) الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، ط1، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، 1973، ج1، ص.322

6) الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق محمد بن ابراهيم بن عمر، محمد بن الحسين بن محمد،ج1، ص.406

7) ابن كثير: البداية والنهاية، دون محقق، ط7، مكتبة المعارف للنشر، بيروت، لبنان، (1413ه / 1992م)، ج13، ص ص (61-62)..

8) ابن كثير: مصدر سابق، ص ص (93-94).

9) ابن المتقن: الطبقات، تحقيق نور الدين شربية، ط1، مكتبة خانجي للنشر، القاهرة، ج1، ص.414

10) ابن كثير: مصدر سابق، ج13، ص.183

11) الشبكي: طبقات السبكي (طبقات الشافعية الكبرى)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ط2، دار هجر المهندسين، مصر، 1992، ج8، ص (211- 214)، الداودي، مصدر سابق، ج1، ص.316

12) الداودي، مصدر سابق، ج1، ص.317

13) السبكي، مصدر سابق، ج8، ص ص (240- 241).

14) الذهبي: العبر في حبر من غير، تحقيق

15) ابن الملقن، مصدر سابق، ص ص (402- 403).

16) الكتبي، مصدر سابق، ج1، ص.56

17) ابن الملقن، مصدر سابق، ص.421

18) ابن الملقن، مصدر سابق، ص .452

19) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص.84

20) نفس المصدر، ص.129

21) الكتبي، مصدر سابق، ج1، ص334 ؛ السبكي، مصدر سابق، ج8، ص.340

22) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص.282

23) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص.309

24) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص ص (338- 339).

25) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص.341

26) الذهبي، مصدر سابق، ج5، ص381 ؛ الكتبي، مصدر سابق، ج1، ص.55

27) برمنجهام : الطرق الصوفية في الاسلام، ترجمة عبد القادر التبحراوي، ط1 بيروت، لبنان (1997، ص.57

28) برمنجهام، مصدر سابق، ص.57

29) رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي، ط1، مكتبة لبنان للنشر، بيروت، لبنان، 1999م، ص.478

30) عماد الدين بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، 1988م، ج8، ص ص (3719- 3720).

31) القوال: هو المغني ابن الجوزي: تلبيس ابليس،ص .304

32) الشبابة: هي آلة من الآلات الموسيقية كان يستعملها الصوفية في سماعاتهم الى جانب مجموعة أخرى من الآلات الموسيقية كالدف و الجلاجل، وهي تخرج سامعها عن حيز الاعتدال و تثير حب الهوى في قلبه. ابن الجوزي، مصدر سابق، ص .279

33) ابن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للنشر، بيروت، لبنان، 1988م.، ج8، ص ص (3720-3721).

34) الوجد: قال صاحب الحلية أبو نعيم الأصفهاني (ت430ه /1042م)، بأن التصوف هو الهيمان في الوجد، و قد شرح علي الجرجاني (ت 816ه/1439م)، الوجد بأنه ما يصادف القلب و يرد عليه بلا تكلف و لاتصنع، و قيل هو برق يلمع في القلب ثم يخمد سريعا. أبو

نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء و طبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي للنشر، بيروت، لبنان، 1415ه، ج2، ص250؛ علي الجرجاني: التعريفات، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي للنشر، بيروت، لبنان، 1405ه، ج1، ص.323.

35)ابن الملقن، مصدر سابق، ص.454

36)ابن الملقن، مصدر سابق، ص ص (466- 467).

37)ابن الملق، مصدر سابق، ص .480

38)ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص.360

39)الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيبالأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، لبنان، 1413ه، ج22، ص235؛ ابن كثير، مصدر سابق، ج13، ص.137

40)ابن كثير، مصدر سابق، ج13، ص ص (117- 118).

41)ابن الملقن، مصدر سابق، ص161؛ ابن دقاق: نزهة الأنام في تاريخ الاسلام، تحقيق سهير سيارة ط1، دار المكتبة العصرية للنشر، لبنان، صيدا، ص.60

42)اليافعي: مرآة الجنان و غييرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان، دون محقق، ط2، 1997، ج4، ص.77

43)اليافعي، مصدر سابق، ج4، ص.77

44)الكتبي، مصدر سابق، ج3، ص (6- 9).

45)قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف العثمانية للنشر، حيدر أباد الدكن، 1374ه، ج1، ص ص (411- 412).

46)نفسه.

47)الكتبي، مصدر سابق، ج2، ص.352

48)الذهبي، العبر، مصدر سابق، ج5، ص.357

49)ابن كثير، مصدر سابق، ج13، ص.340

50)أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، تحقيق سعيد نسيب مكارم، ط1، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، 1995م، ص.335

51)ابن الجوزين مصدر سابق، ص218، ص222، ص .227

52) نفس المصدر، ص .322

53) نفس المصدر، ص.227.

54) المزي يوسف أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، ط1، دار الرسالة للنشر، بيروت، لبنان، (1400ه- 1980م)، ج1، ص447؛ ابن الجوزي، مصدر سابق، ص.222.

55) ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق محمد عبد الرحمان عوض، د. ط، دار الكتاب العربي للنشر، بيروت، لبنان، (1425ه/ 2004)، ص.79.

56) السهر وردي، مصدر سابق، ص ص (173- 174).

57) نفس المصدر، ص.175.

58) ابن تيمية: الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، المكتب التعليمي السعودي للنشر، ج11، ص587، ص.593.

59) نفس المصدر، ج11، ص (595- 603).

60) ابن القيم الجوزية: اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي، ط5، دار كتاب العرب للنشر، بيروت، لبنان،( 1422ه/ 2002م)، ج1، ص.342

61) نفسه.

62) ابن القيم الجوزية، مصدر سابق، ص.342.

63) نفس المصدر، ص.350.

64) الشاطبي: الاعتصام، تحقيق محمود طعمة، ط2، دار المعرفة للنشر، بيروت، لبنان، (1420ه/ 2000م)، ص .230.

65) نفس المصدر، ص231؛ الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، ابراهيم رمضان، ط1، دار المعرفة للنشر، بيروت، لبنان، (1415ه/ 1994م)، ج2، ص ص (473- 474).

66) نيكلسون: في التصوف الاسلامي و تاريخه، ترجمة أبو العلا فيفي، د. ط، لجنة التأليف و الترجمة للنشر، ص.90.

67) ابن الجوزي، (التسييس)، مصدر سابق، ص.227.

68) الشاطبي، (الموافقات)، مصدر سابق، ص.540.

69) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج2، ص ص (166- 167).

70) نفس المصدر، ص.163.

71) السهروردي، مصدر سابق، ص.77

72) نفس المصدر، ص.78

73) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تحقيق عادل أحمد موجود، ط1، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، لبنان، (1996م، ج4، ص.364

74) عبد الرحمان الوكيل: هذه هي الصوفية، ط3، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، لبنان، 1979م، ص.31

75) النعيمي، مصدر سابق، ج2، ص.154

76) نفسه.

77) عبد العزيز الدباغ: الابريز، الحامة، الجزائر، الرقم 2973، ج2، ص.203

78) عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى، دون محقق، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، ج1، ص.167

79) وعن الحشيش قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بأن الحشيش المسكر حرام و حكم أكله الجلد فيكون الجزاء يمثل جزاء شارب الخمر لما فيه من افساد للدين و العقل و بعد وصد عن ذكر الله عز وجل و عن الصلاة و العبادات، ابن تيمية، مصدر سابقن ج28، ص.187

80) ادريس محمود ادريس: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية

81) توفيق الطويل: التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. ط، مكتبة الأدب للنشر، القاهرة، مصر، ص.48

82) ادريس محمود ادريس، مرجع سابق، ج3، ص.1095

83) توفيق الطويل، مرجع سابق، ص112، ص.180

84) نفس المرجع، ص.116

85) عبد الرحمان الوكيل، مرجع سابق، ص.109

86) ادريس محمود ادريس، مرجع سابق، ج3، ص1095.